ثقافة المهاجر العربي بين الهوية الوطنية والاندماج

د. رابح عيسو–جامعة الجزائر2 –الجزائر

ملخص: شهد العالم الكثير من أنماط الهجرة إلى أوطان مختلفة مما جعل المهاجر أن يحتفظ بهويته الأصلية ويجد صعوبة في التأقلم مع ثقافة البلاد المهَاجَر إليها، فتولد لديه صراع داخلي مما تمظهر على سلوكه اليومي في تعاملاته مع الأخرين من ذوي الثقافة المختلفة. هنا نقصد المهاجِر العربي الذي تشبع بالثقافة العربية وهو بدوره ورَّثها لأولاده.

ظهرت بعد التطورات الهائلة في ميادين شتى من المعرفة والعلوم والتقنية والاتصالات الكثير من الصراعات بين الجماعات سواء كانت أغلبية أو أقلية بسبب صعوبة التعايش، والناتج عن الصراع الداخلي الذي يعيشه المهاجِر العربي بين الحفاظ على هويته الوطنية أو الانسلاخ منها والاندماج الكلي في الثقافة الجديدة عن ثقافته العربية.

يقف المهاجِر العربي اليوم أمام تحديات صعبة ومعقدة في نفس الوقت، وهذه التحديات تتجلى في المهاجر العربي في حد ذاته (عدم تقبله الأمر الواقع) وفي حساسية الثقافة والقوانين (الالتزام بالإجراءات القانونية السارية على المواطنين) البلد المهَاجَر إليه (على سبيل الذكر أوروبا)، إلا أننا نجد كثير من محاولات في التوفيق بين الاحتفاظ بالهوية الوطنية والاندماج.

سنتناول في ورقتنا البحثية الصعوبات التي يواجها المهاجر العربي في الحفاظ على هويته العربية والتأقلم مع ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه والاندماج فيه، بالإضافة إلى التحديات في الاندماج والتأقلم مع ثقافة المجتمع المعاش فيه من التحلي بالصبر والمثابرة في تحصيل المعرفة ولغة ذلك المجتمع وبالتالي يصبح ذلك المواطن الهجين من الثقافتين في الاتجاه السليم (يصبح الفرد الصالح في المجتمع والبعيد عن الصورة الغريبة المأخوذة عن الثقافة العربية). وأخيرا المهاجِر العربي المعاصر الذي يشارك في سن القوانين تحت قبة البرلمانات الأوروبية والخاصة به كعربي.

Arab immigrant culture between national identity and integration

Abstract: The world has witnessed a lot of migration patterns to different homelands, making the immigrant retain his original identity and find it difficult to cope with the country's immigrant culture. Here we mean the Arab immigrant who saturated Arab culture and in turn inherited it for his children.

After tremendous developments in various fields of knowledge, science, technology and communication, many conflicts have arisen between groups, whether majority or minority, because of the difficulty of coexistence, resulting from the Arab migrant's internal struggle between preserving or breaking his national identity and integrating fully into the new culture of his Arab culture.

Today, the Arab migrant faces difficult and complex challenges. These challenges are manifested in the Arab migrant in itself (unacceptable) and in the sensitivity of culture and laws (adherence to the legal procedures applicable to citizens) of the migrant country (for example, Europe), but we find many attempts to reconcile the preservation of national identity with integration.

In our paper, we will address the difficulties faced by the Arab migrant in preserving his Arab identity and adapting to and integrating into the culture of the society in which he lives, as well as the challenges in integrating and adapting to the culture of the living society, from being patient and persistent in the acquisition of knowledge and the language of that society and thus becoming a hybrid citizen of both cultures in the right direction. (Become a good individual in society and far from the strange image taken of Arab culture). Finally, a contemporary Arab immigrant who participates in the enactment of laws under the dome of European parliaments and his own as an Arab.

مقدمة

شهد العالم الكثير من أنماط الهجرة إلى أوطان مختلفة مما جعل المهاجر أن يحتفظ بهويته الأصلية ويجد صعوبة في التأقلم مع ثقافة البلاد المهَاجَر إليها، فتولد لديه صراع داخلي مما

تمظهر على سلوكه اليومي في تعاملاته مع الأخرين من ذوي الثقافة المختلفة. هنا نقصد المهاجِر العربي الذي تشبع بالثقافة العربية وهو بدوره ورَّثها لأولاده.

ظهرت بعد التطورات الهائلة في ميادين شتى من المعرفة والعلوم والتقنية والاتصالات الكثير من الصراعات بين الجماعات سواء كانت أغلبية أو أقلية بسبب صعوبة التعايش، والناتج عن الصراع الداخلي الذي يعيشه المهاجِر العربي بين الحفاظ على هويته الوطنية أو الانسلاخ منها والاندماج الكلي في الثقافة الجديدة عن ثقافته العربية.

يقف المهاجِر العربي اليوم أمام تحديات صعبة ومعقدة في نفس الوقت، وهذه التحديات تتجلى في المهاجر العربي في حد ذاته (عدم تقبله الأمر الواقع) وفي حساسية الثقافة والقوانين (الالتزام بالإجراءات القانونية السارية على المواطنين) البلد المهَاجَر إليه (على سبيل الذكر أوروبا)، إلا أننا نجد كثير من محاولات في التوفيق بين الاحتفاظ بالهوية الوطنية والاندماج.

سنتناول في ورقتنا البحثية هذه الصعوبات التي يواجهها المهاجِر العربي في الحفاظ على هويته العربية والتأقلم مع ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه والاندماج فيه، بالإضافة إلى التحديات في الاندماج والتأقلم مع ثقافة المجتمع المعاش فيه من التحلي بالصبر والمثابرة في تحصيل المعرفة ولغة ذلك المجتمع وبالتالي يصبح ذلك المواطن الهجين من الثقافتين في الاتجاه السليم (يصبح الفرد الصالح في المجتمع والبعيد عن الصورة الغريبة المأخوذة عن الثقافة العربية). وأخيرا المهاجِر العربي المعاصر الذي يشارك في سن القوانين تحت قبة البرلمانات الأوروبية والخاصة به كعربي.

فإذا كانت الثقافة ترتبط بالفرد والجماعة والمكان في إطار زمني وتاريخي، مُكوِنة هوية الفرد وتحديد انتمائه لجماعة معينة، حاملاً سمات المواطنة لوطن هذه الجماعة. في حين إذا أراد هذا الفرد أن ينتقل من وطنه الأصلي إلى موطن آخر، فيقف أمام احتمالين: الاندماج في الوطن الجديد والتضحية بكل ما يربطه بوطنه الأصلي من ثقافة وتقاليد والعادات ومعتقد أو رفض ثقافة الوطن المهاجَر إليه، مما يؤدي به إلى العزلة أو الهروب من مقاومة التحديات التي تواجه من خلال تعدد (تنوع) الثقافات.

أولا نتطرق إلى معالجة بعض المصطلحات الواردة في عنوان ومقدمة المداخلة، وهي: الثقافة، المهاجر العربي، الهوية الوطنية والاندماج.

I- ضبط المفاهيم

1- مفهوم الثقافة

إن مسألة الثقافة أساسا تتعمق بالأفكار والقيم، أيْ تنظيم جمعي لمفكر. لذا يمكن وصف الثقافة على أنها رمزية، وتظهر هذه الرموز والقيم بشكل متباين، وقد وردت تعريفات الثقافة من قبل العلماء والمفكرين، ومفهوم الثقافة يختلف باختلاف الزمان والمكان، وكذلك الاختلاف الفكري والأخلاقي. وأشهر تلك التعريفات ما نجده عند "إدوارد تيلور" "Edward Tylor" (1832-1917) الذي أشار إليه في كتابه «الثقافة البدائية» «Primitive Culture» (1871)، حيث عرف الثقافة أنها «ذلك الكل المركب الكلي الذي يشتمل على: المعارف، والمعتقدات، والفنون، والآداب، والأخلاق، والقوانين، والقدرات، والأعراف، وكذلك على جميع الاستعدادات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع ما» (Tylor, 1871, p. 1).

فالثقافة هي «مجموع السلوكيات الاجتماعية والممارسات التي تتوارثها جماعة أو مجموعة من الأجيال المتلاحقة كتقنيات الأكل والقيم الأخلاقية والعرفية والدينية والعادات اللغوية والطقوس، كما تتجلى في أشكال اللباس والمباني» (دولة، 1990، صفحة 41).

أما "عابد الجابري" فيقصد بـ «الثقافة» في مقاله «العولمة والهوية الثقافية» (1998): ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء. وبعبارة أخرى إن الثقافة هي «المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل» (الجابري، 1998، صفحة 14).

فيمكننا أن نقول: «الثقافة هي منظومة من الأفكار والقيم والسلوك المكتسب من المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، متنوعة المضمون، تختلف فيما بينها قد يصل هذا الاختلاف إلى التناقض، وتتغير من مجتمع إلى آخر بتغير الزمان والمكان».

2- مفهوم الهوية والهوية الوطنية

في الحقيقة مفهوم الهوية ليس بالأمر السهل من تحديده، فلقد كثر الحديث والنقاش حول تحديد مفهوم الهوية، خاصة في الراهن مع الانفتاح العالمي وزوال الحدود الجغرافية بين كثير من الأوطان، وبالخصوص أوروبا، ولهذا نجد "جوتليب فريج" "Gottlob Frege" (1848-1925)

قد وجد صعوبة في وصف تفسير مفهوم «الهوية» فيقول: «إنها غير قابلةٍ للتعريف، إذ أن كلَّ تعريفٍ لها بحد ذاته يُشكل هوية»، ولذلك حسب رأيه لا يمكن وضع تعريفٍ لها. رأي "فريج" يعكس مدى تعقيد مفهوم «الهوية» وغموضه، فهو إشكاليٌّ يحتمل عدة تفسيراتٍ معقدةٍ ومركَّبة، وقد ازداد تعقيدًا شيوعه وعبوره للنظريات والاختصاصات، فكان وما يزال مجالاً للأبحاث الاجتماعية والفلسفية واللغوية والسياسية والتاريخية (أسعد، 2010، صفحة 45).

في المقابل نجد "تشارلز تايلور" "Charles Taylor"(1931–) يعبر عن الهوية ويقول «إنها تعني من نكون، فهي المكان الذي ننتسب إليه، إنها تجسد بحق الخبرات والتجارب السابقة التي تضفي معنى على أذواقنا ورغباتنا وخياراتنا ومطامحنا» (مجيد، 2015).

أما مصطلح الهوية الوطنية يستخدم بمعنيين: الأول، يشير إلى هوية الفرد على اعتبار أنه عضو في الجماعة السياسية دون الأنواع الأخرى من الجماعات، فتقول إن هذه هوية وطنية إذا كان الفرد ألمانيًا أو جزائريًا مثلاً، ونقول إن هذه الهوية هوية دينية أو عرقية إذا كان الفرد مسلمًا أو مسيحيًا أو ينتمي إلى جماعة عرقية. والثاني، يشير إلى هوية الجماعة السياسية، ولماذا تعد هذه الجماعة ألمانية أو جزائرية بدلاً من الجماعات الأخرى (بيكو، 2013، صفحة 97).

الهوية الوطنية تمنح للجماعة السياسية المسكن والمكان الذي ينشدونه، ولا يمكن فصل انتماءهم لهذه الهوية، وذلك بسبب تلقيهم تربية وتعليم في هذا المكان، وتشكيل شخصيتهم عن طريق قيم وأخلاقيات هذه الجماعة السياسية. تعيش هذه الجماعة السياسية في ظل قوانين وضوابط اجتماعية مسطرة وفق اختيارات الجماعة السياسية، المتمثلة في الروابط الاجتماعية.

لقد شهدت الهويات الوطنية تطورًا كبيرًا في أوروبا الغربية بعد الحربين العالميتين في القرن الماضي وبعد ظهور العولمة التي أدت إلى الانفتاح في كل المجالات، شكلت الاتحاد الأوروبي صابغة الهويات الوطنية بالهوية القارية أو الهوية الإقليمية (بيكو، 2013، صفحة 99).

فالهوية الوطنية تُمنح ويُعاد تشكيلها بصفة دورية. كما أنها تُورث للمواطنين، وتشكل أفكارًا على نحو محفوف بالمخاطر، ويُعاد تعريفها واسترجاعها في ضوء ظروفهم ومعرفتهم لذاتهم وطموحاتهم المستقبلية. ويتطلب هذا معرفة تاريخية عميقة بالبلد والاحساس بماضيها والتقييم الواقعي والدقيق لتحدياتها الراهنة وأمالها المستقبلية. إعادة بناء الهوية الوطنية له مخاطره وتحفظاته، حيث يتم نبذ ما هو قديم أو مهجور أو غير مقبول أخلاقيًا، ويؤسس لما هو متصل ومفيد ومحمود (بيكو، 2013، الصفحات 103–104).

تُعد الهوية من المفاهيم الأكثر تداخلاً وتشابكًا مع مفاهيم متقاربة مثل الوطنية، المواطنة، القومية، الأمة، وغيرها، ولذلك السبب تناولتها حقول متعددة كالحقل السياسي، الإيديولوجي، التاريخي، الثقافي، وحتى الحقل الاقتصادي والقانوني. ورغم الجهود الجبارة في إيجاد خلفية نظرية وأرضية لممارسة الهوية الوطنية، إلا أن مفهوم الهوية الوطنية، يبقى «مفهوما مجردًا وأكثر تعقيدًا» (Smith, 1992) كما «يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشاكلة، وذلك لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته» (ميكشيللي، 1993، صفحة 7)، وتنطوي الهوية الوطنية بالأساس على معان ودلالات رمزية وثقافية وجماعية تعطي الفرد إحساسًا بالانتماء إلى الجسم الأكبر، وتخلق لديه الاعتزاز بهذا الكيان، وهذا المفهوم يشير إلى وجود بُعد ذاتي وبُعد جماعي للهوية، وبُعد آخر مرتبط بالدولة والسكان على حد سواء، وهي نتاج اجتماعي ثقافي تاريخي عام، وتمثل علاقة متكاملة، وتغطي مدى واسعًا للتصنيف والتنظير، وتعطي الناس شعورًا بأنهم مرتبطون ببعضهم برابط محدد، وتتجاوز أحيانًا كل الولاءات الطبقية (الجريبيع، 2008). بناء عليه، يمكن إيجاز تحديد مفهوم الهوية الوطنية باعتبارها مزيج من العناصر الداخلية والخارجية للفرد، ذات الترابط الوشائجي والعاطفي، يتضمن الانفعالات والشعور والتمثلات الذهنية والاتجاهات والقيم والمواقف تجاه قضايا مادية كالإقليم، والجغرافيا والمنتوج المادي للأمة، وقضايا لا مادية كالتاريخ واللغة والدين والتراث من عادات وتقاليد ورموز ثقافية التي تميز أمة عن غيرها من الأمم.

وللهوية الوطنية مكونات والمتمثلة في مجموعة من العناصر التي تجعل منها منظومة متكاملة غير مجزأة، وقابلة للتطور على مستوى الفرد والجماعة والوطن، هي المستويات الثلاثة التي «ليس بالضرورة أن تتميز بحالة من الثبات، بل هي متغيرة، متأثرة في ذلك بالظروف والصراعات والمصالح» (الجابري، 1998، صفحة 15):

– العنصر المادي: وهي تشمل القدرات والإمكانات الاقتصادية والتنظيمات، كما تتضمن حدود الإقليم وجغرافيا الوطن.

– العنصر الثقافي: وهي كل الرموز المتعلقة باللغة، التراث، العادات والتقاليد والفلكلور الشعبي.

– النصر الروحي: يتعلق أساسا بالدين والمذهب التعبدي وجملة الاعتقادات والتوجهات الدينية السائدة في المجتمع.

– العناصر النفسية والاجتماعية: وتعني أنماط الحياة السائدة مثل طريقة ونوع اللباس، الأكل، طبيعة العلاقات الاجتماعية والمناسبات، وتخص كذلك الفئات والطبقات الاجتماعية السائدة، كما

تنطوي على درجة الولاء والتماسك الاجتماعي والشعور بالانتماء المولد للنشاط الاجتماعي كالتطوع والرغبة في الدفاع عن الوطن.

تتضمن سيرورة بناء الهوية الجماعية فعل تفيء، ويحيل هذا الفعل إلى مطابقة الأفراد للصفات محددة أو انتمائهم إلى فئة معينة، وذلك أن بناء الهوية الجماعية هو مؤسس على الانتماء، حي أن الشعور المتبادل بالانتماء المتشارك بين أفراد مجموعة معينة، هو الذي يجمعهم ويمنحهم الشعور بالوحدة، ويرتكز هذا الشعور على سيرورة ذاتية وعاطفية تربط (أو تفصل) الأفراد فيما بينهم، إذا كان هذا الرابط متينا أصبح شعور الفرد بالانتماء وبالتالي هويته أكثر ثباتًا واستقرارًا، أما إذا كان الرابط هشًا أو حتى منفصلاً بفعل الرفض أو الوصم مثلاً، إن شعوره بالانتماء وانخراطه ضمن هذه الجماعة لا يتحقق.

يُحيل مفهوم الانتماء ليس فقط إلى سيرورة عاطفية فردية، ولكن أيضًا إلى سيرورة انخراط بنيوي وبيروقراطي، وذلك أن قبول فرد ضمن جماعة معينة هو ليس فقط رهن تفاعلات اجتماعية بينه وبين الجماعة التي يود انخراط فيها، ولكنه مرتبط ذلك بالبنيات السياسية والادارية التي تلعب دورًا حاسمًا في قبول أو رفض انخراطه ضمن هذه الجماعة. إن بناء الهوية الجماعية هو سيرورة تتداخل فيها عوامل ذاتية عاطفية وأخرى موضوعية مؤسساتية لا تقل أهمية، بحيث تلعب هذه العوامل دورًا أساسيًا في تسهيل أو عرقلة سيرورة الانتماء وبالتالي بناء الهوية (خيدون، 2020، صفحة 69).

يرتبط البعد الجماعي للهوية بالشعور بالانتماء الذي نملكه إزاء جماعات معينة، وقد اعتبرت بعض التصورات الكلاسيكية

(مثال على ذلك دوركايم) أن هذا الشعور مفروض على الفرد بشكل موضوعي خارج إرادته (Calin, 1998, p. 1)،

ومعنى ذلك أن هويته الجماعية محددة بشكل سابق عنه، فبمجرد وجوده داخل المجتمع يكون قد اكتسب هويته. والواقع أن هذا التصور متجاوز اليوم، وذلك بسب حتميته، وبسب اهماله لمكانة ودور الفرد في تشكيل هويته الخاصة، وأيضًا لكونه يصور الهوية الجماعية باعتبارها جامدة وثابتة، وهو عكس ما تذهب إليه كثير من التصورات اليوم ،حيث تعتبر أن الهويات الجماعية تتغير باستمرار، وذلك أنها عبارة عن سيرورة مستمرة من التفاوض والتأكيد، يقوم خلالها الأفراد بالانتماء إلى جماعات معينة والتصرف باسمها وضمن إطارها، وهذا الانتماء على العكس من

سابقه، يكون نابعًا من وعي وإرادة كبيرين للفرد، وليس مجرد انخراط مباشر ضمن المسار والمكان الذي تحدده الجماعة (خيدون، 2020، صفحة 70).

3- المهاجر

تُعرّف وكالة الهجرة للأمم المتحدة (IOM) المهاجِر بأنه أي شخص ينتقل أو انتقل عبر حدود دولية أو داخل دولة بعيدًا عن مكان إقامته المعتاد، بغض النظر عن: أولاً الوضع القانوني للشخص، وثانيًا ما إذا كانت الحركة طوعية أو غير طوعية، وثالثاً ما هي أسباب الحركة، ورابعًا ما هي مدة الإقامة (الأمم المتحدة).

4- مفهوم الاندماج

الاندماج Intégration هو درجة أعلى من التكامل في التعبير عن توحد الأجزاء في كل مشترك، وهو عملية وحالة نهائية، على حد سواء. ويكون هدف الحالة النهائية عندما تندمج الأطراف الفاعلة هي تكوين جماعة سياسية. وتتضمن العملية أو العمليات الوسائل أو الأدوات التي تتحقق بوساطتها تلك الجماعة السياسية. ويعتبر الانفتاح المتبادل وكذلك قبول التنوع داخل المجتمع وتقديره بمثابة شروط محورية لعملية اندماج ناجحة. يجب أن تكون عملية الاندماج طوعية وبتوافق الآراء. أما الاندماج الذي يجري بالقوة والقسر فهو امبريالية.

يوصف الاندماج بصريح العبارة بأنه مشاركة مجتمعية فاعلة داخل مجتمع البلد المستضيف بلا تمييز مبني على ثقافة أو فكر أو معتقد.. وإذا ما سلمنا بمسألة أن لكل إنسان أفكارًا ومسلمات وجزمنا بطغيان مظهر ثقافي معين في كل مجتمع في الوقت الراهن، حينئذ قد نلمس ونفهم اختلاف مفهومي الاندماج والانصهار (الذوبان)، فالاندماج يعني أن نسعى لنتكيف مع البيئة الجديدة مع القيام بالحد الأدنى من التنازلات، أقصد أن المهاجر إن هو أراد أن يندمج في محيطه الجديد المختلف ثقافيًا فإنه يلزم عليه أن يتخلى عن بعض أفكاره ولو بشكل مرحلي على الأقل.

II- العلاقة بين الهوية والهجرة

استعمل "عبد المالك صياد" (1933-1998) مصطلحين للهجرة، هما: émigration وimmigration فالمصطلح الأول ترجمه إلى الهجرة، هو انتقال من البلد الأصلي نحو بلد آخر. أما المصطلح الثاني، والذي ترجمه إلى مصطلح الغُرْبة، يعني التواجد والعيش في البلد

الُمستقبِل. إذن فالهجرة حسب "صياد" تكون دائما من البلد الأصلي نحو بلد المهاجَر إليه، وتكون غُرْبَةً في بلد المهاجَر إليه، فيكون المُنتَقِلُ مُهاجرًا من بلده الأصلي ليصبح مُّغْتَرِبا في بلد المهاجَر إليه (بلعباس، 2013، صفحة 25).

الهجرة على غرار كل التغيرات الهامة التي تمس الوضع الاجتماعي للفرد، تؤثر على أحاسيس الانتماء الاجتماعي، وبالتالي أحاسيس الهوية (Calin، 1998، صفحة 2)، وهو الأمر الذي يضع اشكالية الهوية في صلب اهتمام سوسيولوجيا الهجرة، كما يجعل، من جهة أخرى، من الهجرة موضوعا أساسيًا لا محيد عنه لفهم ديناميات بناء الهوية، الهجرة هي ليست فقط حركية أو تغييرًا مؤقتًا أو دائمًا لمكان الاقامة، وإنما هي تغير جذري يمس الروابط الاجتماعية للفرد، ويضعه أمام ضرورة بناء روابط جديدة مع هامش اختيار الحفاظ أو القطع مع روابطه القديمة ، وتشكل هذه الدينامية المتمثلة في عملية بناء وإعادة بناء الروابط أساس تشكيل الانتماء الذي يعد بدوره ركيزة الهوية .

تؤثر الهجرة بشكل كبير على هوية المهاجِر، حيث تؤدي إلى إضعاف شعوره بالهوية، ويتكرس هذا الوضع من خلال غياب المؤشرات المرجعية داخل البلد المهاجَر إليه، إضافة إلى صعوبات الاندماج، وملاقات الرفض وعدم القبول من طرف سكان البلد المهاجَر إليه، سواء كان هذا الرفض متجسدًا بشكل موضوعي عبر القوانين والمؤسسات، أو مقتصرًا على التمثلات والوصم الاجتماعي. تؤثر الهجرة أيضًا على الهوية من خلال الانفصال الذي تحدثه بين المهاجِر وجماعته الأصلية لا سيما عندما تكون المسافة المجالية كبيرة، حي ينعكس هذا الأمر على روابط الأسرة فتنفصل بشكل كلي أو جزئي، كما تتأثر أيضًا الروابط التي يقيمها الفرد بالمجال حيث تنفصل صلته بالتراب أو البيت (Calin، 1998، صفحة 2)، ويؤثر ذلك بشكل كبير على هوية المهاجِر حي يصبح تحت ضرورة إعادة بناء هويته عبر إنشاء روابط جديدة داخل البلد المهاجَر إليه، لكن بما أن هذا الأخير قليلاً ما يعترف بالمهاجِرين كأعضاء مرغوب فيهم ضمن المجتمع، إن هوية المهاجِر غالبًا ما تصبح هشة ، ومنقسمة بين اختيار التشبث بالانتماء للبلد الأصل، واختيار بناء انتماء جديد مع البلد المهاجر إليه، والواقع أن كلا الاختيارين صعب التحقيق، وهو ما أشار إليه "عبد المالك صياد" من خلال مفهومه «الغياب المزدوج»، حيث يحيل هذا الأخير إلى أن المهاجِر غائب بشكل ملموس في بلده الأصل، وغائب بشكل مجرد في البلد المهاجَر إليه.

تفرض الهجرة نوعًا من اللاإستقرار والحركية الدائمة، كما تفترض أحيانًا بحثًا مستمرًا عن الانتماء وتفاعلاً مستمرًا مع الشروط البيروقراطية والقانونية للقبول الاجتماعي (Caroline B. Brettell, 2006, p. 3)، وهو الأمر الذي يجعل هوية المهاجِر مرنة وانسيابية، على اعتبار أنها لا تقبل الاختزال في أي من منها، كما لا يتحقق فهمها إلا من خلال تبني مقاربة متعددة التخصصات تتناول اشكالية الهجرة والهوية من مختلف المداخل الممكنة.

يتأسس بناء الهوية لدى المهاجرين على سيرورتين، إحداهما ذاتية تتشكل عبر اختياراتهم الخاصة، والأخرى خارجية تفرض عليهم، وذلك أن هوية المهاجِر هي لا تُبنى فقط عبر نظرته لذاته والأوضاع التي حددها لنفسه، ولكن أيضًا من خلال نظرة الآخرين، والأوضاع التي حددها الآخرون له (Caroline B. Brettell, 2006, p. 4) 4، فهوية المهاجِرين هي منتوج تتفاعل به ضمنه علاقة الذات (الجماعية) بالغير، وتتجسد هذه العلاقة في جدلية التفاعل والصراع بين الصورة التي تُرسم حول المهاجِر على أساس انتمائه إلى إثنية أو ديانة أو لغة ...الخ، والصورة التي يَرسمها المهاجر حول نفسه سواء عبر مقاومة هذه الصورة أو تبنيها.

تتعارض هذه الفكرة مع التصورات الكلاسيكية للهوية والتي تعتبر هذه الأخيرة ككل قائم ومكتمل، وبالتالي تنظر للمهاجِر باعتباره حامل لهوية مُشكَّلة وثابتة، محددَّة مسبقًا من طرف المجتمع الأصلي الذي ينتمي إليه، ومرتبط بشكل قوي بالمجال والتراب الذي تتشكل ضمنه. في المقابل، أن الهويات تبنى داخل سيرورة الحركية، بحيث تندمج مجموعة من الخبرات المتراكمة ضمن أماكن متعددة في الآن ذاته، فالهوية ليست جوهرًا قائمًا، وإنما هي منتوج دائمًا في طور التشكل، وذلك أنها مرنة وسائلة، تتفاعل مع مختتل السياقات المتغيرة (Caroline B. Brettell, 2006, pp. 3-4).

IV- أزمة الهوية في ظل الهجرة (بين الاحتفاظ بالهوية الوطنية والاندماج)

1- إشكالية الاندماج الثقافي

لقد أثيرت أزمة الهوية من خلال قضايا الهجرة والمهاجِرين وبالخصوص قضية الاندماج، فأصبحت تحظى باهتمام الكثير من الحكومات والمنظمات، نظرًا لتصاعد حدة المشكلات المتعلقة بتزايد عدد المهاجِرين المتواجدين فيها، الأمر الذي تطلب إيجاد أليات محددة لإدراك هذه الإشكالات أولاً، ومن ثم الاستجابة لها، ومنها ما يتعلق بالحواجز اللغوية، والعزلة المجتمعية،

وعدم الإحساس بالأمان المجتمعي، مما انعكس سلبًا على المستوى التعليمي والتأهيلي للمهاجرين العرب، وتقويض احتمالية اندماجهم بالمجتمع، ومن ثم توظيفهم (Trines, 2019).

فقد شخص المتابعون لشؤون المهاجِرين بأن أعداد غير قليلة من المهاجرين، لا زالوا مترددين بين كل من العزلة، للمحافظة على المفاهيم التي جاء بها من بلده الأصلي، وبين أن يندمج في مجتمعه الجديد، والخوف من أن يؤدي ذلك الى فقدانه لجزء مهم من مفاهيمه وتقاليده الموروثة، لصالح تلك المستجدة، وقد لوحظ، بأن الكثير من هؤلاء، عادةً ما يميلون إلى العزلة وعدم الاندماج في مجتمعاتهم الجديدة، مع محاولة إيجاد بعض الكيانات المنعزلة والمنفصلة عن المجتمع الحاضن، وهو ما شكل بالتالي ضغطًا على جهود الحكومات الأوروبية في تطبيق خططها حول الاندماج (الغني، 2009).

إن ما يضعنا أمام البحث في واقع حال المهاجِر في بلد المهاجَر إليه، هو ذاك الانتقال من انتماء واضحٍ وقابلٍ للاستيعاب من طرف الآخرين، إلى وضعية معلقة لا تُفهم! لا على أساس سلبي، أي ما ليس هو حينما ننظر إليه من زاوية المواطن المقيم في بلده، إذ يبدو (مثلما قال محمد هاشمي في مقاله «المهاجر في مواجهة الامتناعات النظرية» المنشور على موقع مؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، زائدة على الهوية المركزية، أو لم يعده عند استحضار هويته الأصلية التي لم تعد قادرة على أن توفر له مستقرًا آمنًا، أو أنها تبددت بفعل عوامل تاريخية)، مما يدعونا إلى طرح الإشكالات التالية: ما طبيعة المسافة التي تفصل المهاجِر عن ثقافة البلد المهاجَر إليه؟ ما أسباب تشكل أزمة الهوية لدى المهاجِر؟ إلى أي حد يمكن الحديث عن إمكانية انصهار هوية المهاجِر؟ (بسي، صفحة 328).

يُطالب المهاجر بألَّا يعود إلى وطنه الأم، ويريد هوية لا توصم بالغرابة ووطنًا بديلاً دون أن يتخلى عن هويته، بل يطالب أن يتسع الوطن البديل وتمنحه مكانًا، ليعوض بذلك مجال انتمائه وخلفيته التاريخية والثقافية، وهذا ما تعبر عنه ازدواجية الجنسية التي هي مظهر احتيالي على مفهومي المواطنة والانتماء (هاشمي، 2017، صفحة 35).

ظل الكثير من المهاجِرين في حالة تفكير مستمرة بالعودة إلى أرض الوطن وبعضهم يعتقد أن هجرتهم طارئة وغير دائمة، وبهذا يبقى المهاجِر في حالة صراع مع ثقافة البلد المهاجَر إليه حتى تتحقق عودته.

إن ما يقابل ذلك الازدواج مطلب الاندماج الكامل، عبر معاملة المهاجِر كمادةٍ خام تجري عليها عمليات إدماجٍ ثقافيةٍ للوصول إلى التوطين، فيمكن بذلك أن يتجاوز أي توترٍ بين مفهومي الإنسان العام والمواطن المحيَّز، لكن ذلك يُعد تصفية ثقافية للمهاجِر، يرى الهوية الثقافية رؤية سطحية كونها زيًّا تقليديًا بالإمكان أن يتخلص المهاجِر منه قبل عبوره البلاد الجديدة، ولا يرى أولئك أن الأمر أعقد من هذه النظرة، فليس الخروج من الوطن الأم بالضرورة خروجًا من عباءته الثقافية (هاشمي، 2017، صفحة 35).

إذن، يبقى المهاجِر على ارتباط بمنطقة انطلاقه أحيانًا يتعزز بصورة كاملةٍ أو مؤقتة فتختلف إزاء ذلك تفسيرات الفعل، فحسب الطرح الفيبيري (نسبة إلى ماكس فيبر "Max Weber") إن المهاجِر يُعد فاعلاً عقلانيًا عند تركه لمجالٍ لا يوفر له الإمكانات، إلى مجالٍ مُحفزٍ ومُحققٍ لذاته، وتعد علاقة المهاجِر بموطنه الأصلي فعلاً عاطفيًا يتجلى في زيارات المهاجِرين المتكررة لموطن الأصل وتشبثهم بهويتهم، وذلك من خلال زياراتٍ موسمية أو عودة نهائية للبعض منهم، وهذا يدل على مدى ارتباط الأفراد بمجتمعاتهم الأصلية، مما يجعلنا نتحدث عن مسألة الحضور والغياب في الآن ذاته، من خلال تفاعلات المهاجِرين مع موطنهم الأصلي في البلد المهاجَر إليه، فعلى الرغم من التحولات الكبرى التي شهدها العالم ما يزال المهاجرون العرب في ارتباطٍ وثيقٍ بأوطانهم (المريزق، 2013).

2- الاندماج كبديل للتعددية الثقافية

مع تسارع وتيرة رد الفعل العنيف المضاد للتعددية الثقافية، حل محلها «الاندماج» كموضوع رئيسي للسياسات الوطنية والمحلية الموَجَّهة إزاء الأقليات العرقية في جميع أنحاء أوروبا. وإضافةً إلى ذلك حظيت أفكار «الترابط المجتمعي» و «التلاحم الاجتماعي» و «المواطنة» بقدر كبير من الدعاية المسبقة –لا سيما في المملكة المتحدة – باعتبارها الطريق الجديد للمضي قُدمًا في إدارة مسألة احتواء المهاجِرين والأقليات العرقية في التكوين السياسي الوطني. فالحكومة البريطانية لديها الآن وزراء للمجتمعات، ولجنة للاندماج والتماسك، وإدارات حكومية جديدة. وفي جميع أنحاء أوروبا الغربية، كان ثمة تركيز مستجد على توضيح معنى «الهوية الوطنية» بهدف دمج المهاجِرين أو الأقليات العرقية في الثقافات الوطنية على نحو أفضل. وقد يحلو للمتشككين القول إنه ثمة رسالة حضارية أوروبية جديدة، والتي يُراد من تلك الأفكار والسياسات التي تنبثق عنها أثار جدلًا حتميًّا، وكذلك لم يتلاشى مؤيدو التعددية الثقافية؛ فثمة نقاش محتدم يجري حاليًا،

مع أنه قد يبدو أحيانًا أن المدافعين الوحيدين عن التعددية الثقافية حاليًا يوجدون في الأوساط الأكاديمية وبعض معاقل الناشطين والأقليات العرقية.

إنَّ الفكرة القائلة بأن المشكلة الرئيسية في علاقات المهاجِرين العرب والعلاقات العرقية تكمن في فشلهم في «الاندماج» في المجتمعات الأوروبية التي هاجروا إليها هي فكرة نمطية أساسية ضمن النَّهج الجديد الذي حلَّ محل التعددية الثقافية، لذا فمن المُرجَّح للغاية أن يتساءل المرء: الاندماج في ماذا بالضبط؟ وتتضمن إحدى الإجابات التي أتت بها العديد من الحكومات الأوروبية فكرة القيم الوطنية المحورية، التي يُطلق عليها «السمة البريطانية» أو «الهوية الوطنية الفرنسية»، على سبيل المثال. إلا أن ذلك النوع من التفكير تعترض طريقه بعض المشكلات المستعصية. لطالما ذهب علماء الاجتماع إلى أن الاندماج عندما يُطبَّق على الحياة الاجتماعية، ولا سيما على عمليات الهجرة، يكون مفهومًا متعدد الأبعاد؛ فلا يوجد مقياس واحد لتلك العملية. ويمكن للاندماج أن يتم على المستويات المكانية (على سبيل المثال: الأنماط السكنية) والمستويات الهيكلية (على سبيل المثال: في مجال التعليم وسوق العمل) والمستويات الثقافية (على سبيل المثال: في التمسُّك بالقيم المشتركة). وإضافةً إلى ذلك لا توجد علاقة ضرورية بين المستويات الثلاثة، بحيث يمكن للجيران أن يتبنوا قيمًا مختلفة للغاية، ومن الجائز أن تُحقَّق إنجازات تعليمية ومهنية كبيرة بالرغم من الوجود في أماكن منفصلة، وهكذا (راتانسي، 2013، الصفحات 93-94).

تقول في هذا الإطار الناشطة النمساوية من أصول سودانية "اشراقه مصطفى" (1961-) في محاضرتها في "شومان" حول مشكلة اندماج المهاجرين العرب في أوروبا بأنها: «لا تقع فقط على عاتق مجتمعاتهم الجديدة وسلطاتها، بل هناك تقصير أيضًا منهم أنفسهم (أي المهاجرين)، ويتجلى هذا التقصير في صور عديدة أبرزها ضعف الجهود التي يقومون بها من أجل تعليم أنفسهم وتأهيل أولادهم بما يتناسب ومتطلبات سوق العمل في البلدان التي يعيشون فيها» (مصطفى، 2018).

3- الهوية الوطنية والانتماء والمواطنة

إذا كان «الاندماج» يحل محل التعددية الثقافية في أوروبا، فدائمًا ما يثار تساؤل: الاندماج في ماذا بالضبط؟ أو فيما يتعلق بالفكرة البريطانية عن «الترابط المجتمعي» الترابط المستند إلى أي أساس تحديدًا؟ وإلى جانب المشكلات المتعلقة بكيفية قياس الاندماج وتحديد متى يتم، لطالما تساءل المتشككون عما إذا كان الاندماج بالنسبة إلى المهاجرين يعني التطلُّع إلى الانضمام إلى

ثقافة الإفراط في شرب الكحوليات أو البدانة أو كراهية الأجانب التي تشكِّل بدورها جزءًا من «كَوْن المرء بريطانيًا» أي إن المسألة باتت مرتبطة ارتباطًا لا ينفصم بفكرة «الهوية الوطنية» انطوى الاندماج والترابط على حاجة المهاجرين الجدد والأقليات العرقية إلى الالتزام والافتخار بكل ما يُعتبَر «أساس» الدولة التي مُنِحوا امتياز الدخول إليها، أو الجوهر المميِّز لها، والتي في نهاية المطاف مُنِحوا العضوية الكاملة فيها. وصار الاهتمام بالدولة أكثر محورية بسبب ضغوط الطرد المركزي على سلامتها الناشئة عن قوى العولمة، والمواءمة مع الاتحاد الأوروبي، والنزعات القومية الداخلية التي طالما احتوتها التسويات والتنازلات التي أنشأت دولاً قومية قادرة على البقاء في المقام الأول. وكانت المملكة المتحدة، على سبيل المثال، دولة متعددة القوميات على نحو صريح تعاني ازدياد الاستياء من الهيمنة الإنجليزية على مكوناتها الأسكتلندية والويلزية والأيرلندية (راتانسي، 2013، صفحة 111).

إن شعور المهاجرين والأقليات بالاغتراب عن الثقافة والهوية الوطنيتين يكون أعلى بكثير في بلدان مثل ألمانيا التي عملت نظام اليد العاملة الزائرة، وحيث قاومت الجهات الرسمية بشدة إدراج التنوع الثقافي في تراث الأمة. أما فرنسا فتمكنت من غرس قيم المواطنة الجمهورية في بعض المهاجرين العرب والأقليات، إلا أن غياب الاعتراف الرسمي الجدّي بالمهاجرين العرب وبالأقليات العرقية، بما في ذلك الطبيعة الفاترة لسياسات تكافؤ الفرص، تولَّد عنه استياء حاد باسم حقوق المواطنة، فيما حدت المقاومة الرسمية لرموز الهوية مثل الحجاب بقطاعات كبيرة وخاصة قطاع التربية والتعليم من الأقلية المسلمة الكبيرة إلى الرجوع إلى الهويات الإسلامية على نحو أكثر تشددًا. ومن المفارقة الواضحة أن ذلك الرجوع ملحوظ على نحو خاص بين الشابات المسلمات.

وكان لمستويات التفاوت المتزايدة والفروقات الطبقية المتنامية أهمية أكبر من سياسات التعددية الثقافية في خلق مسافات اجتماعية وتولُّد مشاعر الاستياء داخل مختلف الجماعات العرقية وبينها، على الرغم من أن عملية المزايدة القائمة على المناطق التي استهدفت تمويل مشروعات المناطق الحضرية في الملكة المتحدة، والمحاولات التي بذلتها السلطات المحلية بغية توجيه التمويل بصفة خاصة إلى المشاريع المجتمعية القائمة على الأديان، تضافرت مع نقص المساكن والتغطية الإعلامية المحلية المضللة في ترسيخ الانقسامات وتأجيج مشاعر الاستياء. جاء مهاجرو ما بعد الحرب العالمية الثانية في القرن الماضي إلى جميع الدول الأوروبية الغربية للعمل في الصناعات التي عانت تدهورًا خطيرًا على غرار الصناعات التحويلية والنسيج، وارتفعت

مستويات البطالة والفقر ارتفاعًا هائلًا في تلك المناطق. والواقع أن عبء الانهيار الاقتصادي وقع على عاتق المهاجرين والأقليات العرقية؛ حيث ارتفعت مستويات البطالة والفقر لديهم ارتفاعًا أسرع وأكبر. ففي الضواحي الفرنسية والمدن الشمالية بإنجلترا، عادةً ما كان الشباب المسلمون بالذات يعانون ضعف مستوى البطالة لدى شباب الأغلبية أو ثلاثة أمثاله، وما فتئت جاليتهم تسقط في بئر الفقر بمعدل مقلق (راتانسي، 2013، صفحة 138).

4- نحو التواصل الثقافي

من الواضح أن نقلة سياسية وأيديولوجية قد حدثت في جميع أنحاء أوروبا، لكن هذا لا يمثِّل دائمًا ابتعادًا عن التعددية الثقافية؛ فأحيانًا يتخطَّى ذلك التحوُّل التعددية الثقافية وصولاً إلى أشكال لما يمكن أن يُسَمَّى «التواصل الثقافي» وهو مصطلح ظهر بالفعل في الخطابات الرسمية واكتسب رواجًا خاصًّا في ألمانيا.

تكمن إحدى العبارات التي تشير إلى الاختلاف في التأكيد الذي ينطوي عليه التواصل الثقافي، والذي يتجاوز التعددية الثقافية، في المبدأ السابع ضمن قائمة الاتحاد الأوروبي التي تضم «المبادئ الأساسية المشتركة لدمج المهاجرين» (2004) «إن كثرة التفاعل بين المهاجرين ومواطني الدول الأعضاء هي آلية جوهرية بالنسبة إلى الاندماج». وتواصل العبارة ذاكرةً «المحافل المشتركة، والحوار بين الثقافات، والتثقيف بشأن المهاجرين وثقافاتهم»، وما إلى ذلك (راتانسي، 2013، صفحة 144).

نحن الآن جزء من حقبة «عبور للحدود الوطنية» دائمة التوسُّع التي تصبح فيها الروابط بين المهاجرين وأسلافهم و «أوطانهم» السابقة أكثر تعقيدًا، وقد أصبح انتشار تعدد الهويات الآن أمرًا موثقًا على نطاق واسع. ويلازم ذلك اتجاه جديد نحو «العالمية» يصبح العديد من أفراد الأقليات والأغلبية السكانية في ظله أكثر براعةً في التبديل بين الثقافات وأساليب الحياة واللغات. ومن المحتم أن تكون مثل تلك العمليات متفاوتة ومعتمدة على عوامل مثل الطبقة ومستوى الدخل والجنس والعمر. ومع ذلك، فقد صار جليًا على نحو متزايد أن ثمة حاجة إلى استبدال منظورات أكثر انسجامًا مع الأنماط الأكثر كثافةً من الترابط العالمي بالمنظورات المرتكزة على الدولة القومية التي سادت في السابق.

وفي هذه المرحلة العابرة للحدود الوطنية والعالمية (العولمة)، لا يكون إقامة تواصل ثقافي حواري بحقٍ داخل حدود الدولة أمرًا ضروريًا فحسب، وإنما أمر تزداد إمكانية حدوثه أيضًا. وتوفر صيغة البريطاني "بيكو باريك " "Bhikhu Parekh" (1935-) لفلسفة التعددية الثقافية الحوارية، التي

قدَّمها في كتابه «إعادة النظر في التعددية الثقافية» منبرًا مبدئيًّا، فطوَّره على نحو أكثر ملاءمةً، كما أدرج المزيد من الاعتراف بالتواريخ المترابطة، والجاليات الجديدة وهوياتها المختلطة والمتعددة، وصورًا جديدة للعالمية داخل شعوب الدول القومية، في كتابه «سياسات جديدة لتكوين الهوية» (2008) (راتانسي، 2013، صفحة 151).

5- الهجرة والتنوع الثقافي

يعد التنوع الثقافي حقيقة حتمية من حقائق الحياة الحديثة. تشير الثقافة إلى نظام متأصل تاريخيًا في المعنى والدلالة يتم على أساسه فهم وبناء جماعة من الناس لحياتهم الفردية والجماعية. توضح الثقافة معنى ومدلول الأنشطة الإنسانية والعلاقات الاجتماعية والحياة الإنسانية بصفة عامة، والأهمية والقيمة الملحقة بهم. تجسدت الثقافة في معتقداتها وممارساتها التي تشكل بطريقة جماعية هويتها المشوشة، لكنها هوية مُعترف بها. أن تقول إن كل مجتمع حديث تقريبًا يتنوع ثقافيًا أو هو مجتمع متعدد الثقافة يعنى هذا أن أعضاءه يوافقون على هذا التنوع ويعيشون بأنظمة مختلفة للمعنى والدلالة، على الرغم من تداخل هذه الأنظمة.

التنوع الثقافي في المجتمع الحديث له مصادره العديدة. تشتمل كثير من المجتمعات على جماعات عرقية ودينية وثقافية متعددة، وما يصاحبها من معتقدات وممارسات ولطالما مُنعت هذه الجماعات من التعبير عن نفسها باسم بناء الأمة أو أيديولوجية مهيمنة، أما الآن فيتطلعون إلى ممارسة حرياتهم التي نالوها مؤخرًا. بينما اليوم مع العولمة فرضت عليهم مستجدات مختلفة للفكر، وحتمت عليهم أن يختاروا إما الاندماج مع هذه المستجدات أو احياء أشكال الحياة القديمة نظرًا لإصابتهم بالذعر من هذه المستجدات. ومن الأشياء التي تدعم التنزع وتقوية الإصرار على التمسك بالدين (بيكو، 2013، صفحة 131).

تعد الهجرة مصدرًا مهمًا للتنوع. تضم الهجرة العمال المهرة وغير المهرة الذين يجندون أنفسهم لتلبية احتياجات المجتمع الذي يحيون فيه ويندمجون مع أفراده الأصليين. فالأفراد من جنسيات متعددة يتحركون من بلد لآخر. الأفراد يتحركون بحرية داخل الوحدات الإقليمية كما الاتحاد الأوروبي (بيكو، 2013، صفحة 132). وهؤلاء الأفراد، من المحتمل ألا تختفي ثقافتهم الأصلية وأن تكون مصدرًا للتنوع الثقافي في البلد المهاجَر إليه، كما يمكنها أن تتلاشى بمرور الوقت.

V- بين الاندماج والاستيعاب

لا يمكن لأي مجتمع أن يكون متماسكًا ومستقرًا ما لم يندمج مهاجروه مع الثقافة السائدة ويصبحوا مثل باقي أفراد المجتمع الأصليين. يحتاج كل مجتمع نظامًا مشتركًا للمعنى والقيم، وإذا

كان بعض أعضاء المجتمع يريدون التمسك بمعتقدات وقيم مختلفة، فقد لا يتقبلون بعض الأمور العامة ويصبحون غير قادرين على الاستمرار في مشاركة أفراد المجتمع في قيمهم ومعتقداتهم. يتجادل بعض المدافعين عن الاندماج على أساس منطقي، ويجزمون بأن الكائنات البشرية تطمئن وتستأنس بأفراد مع أفراد من جماعات أخرى أو من نوع آخر. يعد هذا من وجهة نظرهم حقيقة جوهرية للطبيعة البشرية وغريزة راسخة لا يمكن محوها، قد يصرف المجتمع النظر عنها لمخاطرها. ويكون اختيار الأفراد بقدر اهتمامهم وانشغالهم بهذا الموضوع. إذا أرادوا أن يكونوا مقبولين كمواطنين لهم نفس الحقوق والواجبات، فينبغي عليهم أن يندمجوا في الثقافة الوطنية للبلد المهاجَر إليه، ويغيروا هوياتهم المتأصلة فيهم، ويوافقوا على إعادة ميلادهم من جديد ثقافيًا. على العكس من ذلك، إذا تمسكوا بثقافتهم ووطدوا علاقتهم ببلدهم الأصلي، ومن ثم ظلوا مختلفين، فينبغي عليهم في هذه الحالة ألا يشتكوا إذا رفض باقي أفراد المجتمع الاندماج معهم ومعاملتهم بطريقة غير متكافئة. الاختيار له ثمن، ومن ثم يجب على المهاجرين أن يحددوا أي طريق يختارونه لأنفسهم، طريق الاندماج أم طريق الاختلاف.

لا يخلو منهج المؤيدين للاندماج من الجدارة والاستحقاق والأهمية. فالمجتمع لا يكون متماسكًا إلا إذا تقاسم أعضاؤه المعتقدات والقيم الأساسية. إذا لم يرى بعض أفراد المجتمع أية قيمة للحياة البشرية والعدالة واحترام السلطة، أو رأوا صعوبة في التوصل إلى نقطة التقاء بينهم وبين المجتمع أو صعوبة في حفظ الوعود، فمن المرجح في هذه الحالة استحالة وجود حياة مشتركة بين أفراد المجتمع. فضلاً عن أنه في الوقت الذي يحيا فيه الناس مع بعضهم البعض ويميلون إلى تطوير عاداتهم ومصالحهم وميولهم وقيمهم المشتركة، ويزداد التشابه بين بعضهم البعض، فهم يرحبون غالبًا بهذا ويعترفون به. غير أن المدافعين عن الاندماج يطالبون بدرجة ومدى للوحدة أكبر من الممكن أو الضرورة (بيكو، 2013، الصفحات 134-135).

يرغب المهاجرون في أن يتحرروا من القيود المفروضة من قبل البلد المهاجَر إليه كما أنهم يرغبون في الوقت نفسه في أن ينتموا إلى هذا البلد. هذا الانتماء يُعد عملية معقدة ومتشابكة يتم تدعيمها من خلال أعمال الكفاح والتضحيات التي يقوم بها أعضاء المجتمع لأجيال عديدة. وبما أن هويات أعضاء المجتمع الموجودين بالفعل وحياتهم وتاريخهم الشخصي مرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا الانتماء، فإنهم يشعرون أن مجتمعهم يملكهم ويحميهم. هم يريدون إعادة التأكيد على أن المهاجرين يُقدرون قيمة عضويتهم في هذا المجتمع، ويُدركون ويحترمون أسلوب الحياة التي ينتجها هذا المجتمع. حتى الأندية والجمعيات العادية تصر على قواعد العضوية، فهم يتوقعون

انضمام أعضاء جدد لهم يدينون بالولاء والإخلاص لهم، وأن يراقبوا معاييرهم السلوكية، وألا يفعلوا شيئًا يزعزع استقرارهم. التزامات المهاجرين لا تنبع فقط من موافقتهم الصريحة، كما يزعم "جون لوك" "John Locke" (1632–1704)، ولكن أيضًا تنبع من احترام الأخرين لهؤلاء المهاجرين (بيكو، 2013، الصفحات 141–142).

VI– التحديات

يحتاج المهاجرون أيضًا إلى أن يكتسبوا المقدرة الثقافية لضرورة إيجاد أسلوب لهم يكون قريبًا لأسلوب حياة المجتمع. يتضمن هذا تعلم لغة المجتمع الذي يهاجرون إليه، وفهم ومراقبة قواعده وقوانينه المدنية ومعاييره السلوكية، واكتساب تآلف مقبول مع تقاليده وعاداته وتاريخه. وفي الوقت الذي يحترمون فيه قيم وتقاليد هذا المجتمع، فمن المحتمل مع مرور الوقت أن تكون هذه القيم والتقاليد جزءًا من السلوك الذي يسلكونه، وتصبح جزءًا لا يتجزأ من هوياتهم الاجتماعية وربما الشخصية، ولا سيما إذا اعتبروا هذه الأشياء صفة مميزة لهم (بيكو، 2013، صفحة 143).

فلابد على المجتمع المضيف أن يساعد المهاجرين على الاندماج حتى لا يشعرون بالنقص والاحتقار من قبل فئات معينة في المجتمع المعاش فيه، مما يؤدي إلى تولد لدى المهاجرين إحساس بعدم الترحيب بهم. لذا على المجتمع المضيف أن يخفف من التوتر لدى المهاجرين الناشيء من عدم التوفيق بين هوياتهم الأصلية وواقع حياتهم الجديد، واكفال لهم الحقوق كاملة من حيث إيجاد فرص العمل.

يعاني المهاجر العربي من التردد بين العزلة والاندماج، حيث يدور الصراع الداخلي بين أن ينعزل المهاجر العربي ليحافظ على موروثه الذي حمله من وطنه الأصلي وبين أن يندمج في المجتمع الجديد الذي أصبح موجودًا فيه مع الاختلاف بين المفاهيم الموروثة والمفاهيم المستجدة. وهذا التردد لا نلاحظه كثيرًا عند الجيل الذي ولد وعاش وترعرع في المجتمع الأوربي.

ولادة إحساس لدى المهاجر العربي بالخوف من الذوبان في ثقافة الآخر، حيث الاعلام الأوروبي والغربي أقوى بكثير من الاعلام العربي (الغني، 2009، صفحة 30).

يشكو المهاجر العربي (المسلم) من صعوبة الحفاظ على الخصوصيات الثقافية الدينية، فالدساتير تضمن حرية التعبير إجمالاً... لكن التطبيق يتفاوت بين دولة وأخرى، وبين ظرف وآخر... (الغني، 2009، صفحة 31).

تحول الوجود العربي المهاجر في أوروبا الغربية منذ التسعينيات القرن الماضي من حالة الهجرة إلى حالة المواطنة من خلال تجنسهم وتساويهم مع مواطني البلد المهاجَر إليه. فالمواطنة لا

تكمن في مجرد حصول المهاجِر على الجنسية والتمتع بحقوقه في المجتمع المضيف، بل أصبح مواطنًا فعالاً من حيث ممارسة واجباته ومشاركته في بناء المجتمع المضيف لحقه في الانتخاب وتولي المناصب العليا في البرلمانات الأوروبية.

إن شعور المهاجِر العربي بالانتماء المزدوج لوطنين، يفرض عليه تبعًا مسؤولية مزدوجة، الأولى حيال الواقع في الوطن الجديد، حيث تحدق أخطار كثيرة بالهوية اللغوية والدينية والثقافية، والثانية إزاء الوطن الأصلي، الذي ينتظر المساهمة في تطويره من أجل الأجيال القادمة (الغني، 2009، صفحة 64).

خلاصة

يمكننا القول حول ما شرحناه في المداخلة أن إشكالية ثقافة المهاجر العربي بين الهوية الوطنية والاندماج تبقى دائما محل نقاشات لا نهاية لها وهذا لأسباب عدة، والتي يمكن ذكرها:

هناك نوعان من الهجرة الطوعية والقسرية ووفقا لكل نوع يترتب على صاحبها اتباع طرق مناسبة والتي تساعده على التكيف مع البلد المهاجَر إليه، بالإضافة إلى انقسام فريقين منهم ما هو مؤيد للاندماج يمثل الأكثرية، ويرفض جوانب في ثقافة الغرب، لكنه مستعد للتعامل معها، والعيش في ظلّها، شريطة أن يحتفظ بثقافته، ويطلب من ثقافة الأغلبية الأصلية احترام ثقافته، ومنهم من هو معارض ينادي برفض الغرب الذي يعيش فيه، ويدعو إلى مقاومة ثقافته والانعزال عنه، الدعوة على الاحتفاظ بالهوية الأصلية والعيش في البلد المهاجَر دون تأثير ثقافته على هويته الأصلية، إلا أن اندماج المهاجرين يبقى هدفًا تسعى إليه كثير من دول الاتحاد الأوروبي.

يجب على المهاجر العربي أن يكون مستعدًا نفسيًا وعقليًا واجتماعيًا، أي متشبعًا بقيم التسامح والتعايش مع مختلف الثقافة حتى يستطيع أن يتواصل مع أفراد البلد المهاجَر إليه أو عدم تمكنه من ذلك فيبقى في صراع مع ذاته المتشبعة بالموروث الثقافي والديني لبلد انتمائه الأصلي، وبالتالي يعيش في دوامة في المفاضلة بين الاحتفاظ بهويته الوطنية (وطنية البلد الأصلي) والاندماج في ثقافة البلد المهاجَر إليه والحصول على المواطنة (أي هوية وطنية جديدة) والمتمثلة في الحصول على الجنسية والحقوق والواجبات اتجاه البلد الجديد.

أما بالنسبة للمهاجرين الذين ليس لديهم أدنى شروط للخوض في معركة الاندماج والتعايش في البلد المهاجَر إليه، فهم يبقوا دائمًا خارج الإطار، بعبارة أخرى فلا يمكنهم حتى من تعلم لغة ذلك

البلد، مما يولد لديه القلق والاضطراب والنزوع إلى الممارسات اللاأخلاقية واللاقانونية، وبالتالي خلق الفوضى والبلبلة، وهذا يؤدي بالمهاجِر إلى اجلائه من البلد الذي احتضنه أثناء تواجده به.

يحتاج المهاجر إلى الاستعداد العلمي والمادي، ومعرفة سياسة البلد الذي يهاجر إليه، واستيفاء المتطلبات الإدارية من حيث أن تكون لديه وثائق صحيحة حتى لا يكون محل المطاردة من قبل سلطات البلد المهاجَر إليه.

اليوم العالم يعيش في ظل العولمة التي أزالت كل المعايير الخاصة بالوطن والوطنية، أصبح الفرد يعيش في عالم افتراضي (مثلا: شبكة التواصل الاجتماعي) خالي من كل القيم الحقيقة التي كانت مجسدة في الماضي القريب.

وفي الأخير لا ننسى الدور الذي لعبه المهاجر العربي في المجتمعات الأوروبية من نشر القيم الإنسانية وثقافة التسامح من خلال معتقده الديني (الإسلام)، فالمهاجر العربي المسلم يحمل معه رسالة سماوية، ألا وهي الإنسانية، فعليه أن يوازن بين ما تلقاه من مجتمعه الأصلي وتكييفه مع ما هو موجود في المجتمع المضيف. وعليه المهاجر احترام قوانين البلد المهاجَر إليه حتى تمكنه من نشر ثقافته بين أفراد المجتمع المضيف.

من خلال مناقشتنا لهذه الإشكالية يتبادر إلى ذهننا القضية التالية: هل ثقافة الأجنبي تتماهى في وسط ثقافتنا العربية أم تبقى مستعصية على ذلك وتبقى جنبا إلى جنب ثقافتنا العربية؟

قائمة المراجع:

1- Anthony D. Smith 1) .Jan, 1992 .(National Identity and the Idea of European Unity .International Affairs ((Royal Institute of International Affairs 1944.76-55 ،(1)68 ،(-

2- Carolyn F. Srgent Caroline B. Brettell) .September, 2006 .(Migration Identity and Citizenship: Anthropological Perspectives .American Behavioral Scientist3. ،(1)50 ،

3- Daniel Calin .(1998) .Construction identitaire et sentiment d'appartenance .(صفحة 1). ،Paris.

4- Edward Tylor .(1871) .Primitive Culture: Researchs in The Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language, Art a*nd Custom* .New York: Brentano's.

5- Stefan Trines) .August, 2019 .(The State of Refuge Integration in Germany in 2019 .World Education New+ Services: تم الاسترداد من https://wenr.wes.org/2019/08/the-state-of-refugee-integration-in-germany-in-2019

6- أحمد هاشمي. (2017). مهاجرون في مواجهة الامتناعات النظرية. مجلة يتفكرون(11).

7- اشراقه مصطفى. (17 أبريل, 2018). المهاجرين العرب في أوروبا. تم الاسترداد من الشرق الأوسط أون لاين: https://middle-east-online.com/

8- المصطفى المريزق. (مارس ويونيو, 2013). الهجرة المغربية وسؤال الهوية والمواطنة في ضوء الدستور الجديد. المجلة المغربيةلصدارة المحلية والتنمية(110-109).

9- أليكس ميكشيللي. (1993). الهوية. (على وطفة، المترجمون) دمشق: دار النشر الفرنسية.

10- باريك بيكو. (2013). سياسة جديدة للهوية: المبادئ السياسية لعالم يتسم بالاعتماد المتبادل (الإصدار الطبعة الأولى). (حسن محمد فتحي، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

11- حسام الدين على مجيد. (19 06, 2015). انبعاث ظاهرة الهويات: قراءة في منظور المفكر الكندي تشارلز تايلور. تم الاسترداد من حكمة.

12- سليم دولة. (1990). ما الثقافة. الدار البيضاء: منشورات المستقبل.

13- عبد الله بلعباس. (2013). ظاهرة الهجرة عند عبد المالك صياد : من السياق التاريخي إلى النموذج السوسيولوجي. انسانيات المجلة الجزائرية في الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية(62)، 25.

14- علا بياض. (6 سبتمبر, 2020). الهجرة: معضلة الاندماج في المجتمعات الجديدة. تاريخ الاسترداد 23 سبتمبر, 2023، من ايلاف:
https://elaph.com/Web/News/2020/09/1304017.html

15- علي أسعد. (2010). الهويات الأوصولية في زمن التصادم. دمشق: وزارة الثقافة.

16- علي راتانسي. (2013). التعددية الثقافية، مقدمة قصيرة جداً (الإصدار طبعة الأولى). (لبنى عماد تركي، المترجمون) القاهرة: هنداوي.

17- عمر بسي. (بلا تاريخ). الهجرة واشكالية الهوية: هجرة مغاربية إلى أوروبا. مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، 2(10)، 328.

18- محمد خيدون. (أفريل, 2020). الهجرة واشكاليات الهوية في الهالم المعاصر. مجلة جيل البحث في العلوم الانسانية والاجتماعية(63)، 69.

19- محمد عابد الجابري. (28 فبراير, 1998). العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات. المستقبل العربي، 20(228).

20- محمد عبد الله الجريبيع. (2008). مدخل لدراسة الهويات الوطنية: دراسة سوسيولوجية لحالة الهوية الأردنية. المؤتمر الاول للهوية والثقافة الوطنية. عمان.

21- مصطفى عبد الغني. (2009). عرب أوروبا الواقع والمستقبل. القاهرة: دار الجمهورية للصحافة.